و(بوشى كُوسُوتُوكِى) كان مراسلة صادقا مع شجاعة واخلاص يستحقان احترامنا العظيم

الفصل الثامن

نانشان بعد الواقعة

ان (نانشان) تحرس (كِينْشو) فى مدخل بحيث جزيرة لياوتنج ومع كون تلولها ليست حادة الميول ولا وعرة الا أنها ممتدة للخلف الى الامواج العميقة فالموقع مناسب للاغراض الدفاعية ولكنه أقل من هذه الوجهة من (تانكُوا تلنج) الكائنة بعيداً الى الخلف وفى الحرب الصينى اليابانى قاومنا الصينيون مدة فى (تانكوا تلنج) هذه أما السبب الحامل للروسيين على أن يفضلوا أن يستحكموا فى (نانشان) عن (تانكو انلنج) هو أن الاولى أقرب من (دالنى) ميناهم الوحيدة التى لا تتثلج وكانوا قد اختاروا موقعا على الشاطئ المقابل (لِلْيُوشُوتُونْ) طرف السكة الحديدية فى رأس خليج (تالن) وبنوا هناك مدينة (دالنى) الكبيرة متخذينها ميناهم الوحيدة التجارية فى (لياوتنج) ونقطة ابتداء سكة حديد الصين الشرقية ولحماية هذه المينا انتخبوا (نانشان) خلفها وبنوا بها استحكامات نصف دائية وقد انفقوا مدة عشر سنوات العشرات الملايين من الجنيهات لتشييد هذه المدينة وتحصين بورت ارثور ولتقوية نقطة (نانشان) هذه الامامية وقد قال لنا ضابط أركان حرب روسى اسير ان الروسيين كانوا يعتقدون أن نانشان تقاوم أعنف

مهاجمات اليابانيين زيادة عن نصف عام ومع ذلك لما ابتدأ جيشنا الثانى فى الهجوم على الموقع جعل كل صعوبة كلا شيء فاليابانيون لم يفتكروا فى مقدار التضحية بل رموا بأنفسهم على العدو بشدة حتى أن (كينشو) و (نانشان) و(دالنى) احتلت جميعها فى يوم واحد فيمكنكم حينئذ أن تتصوروا شدة هذه المحاربة ولو أن مدة الحرب الصينى اليابانى لم يكن أخذنا (نانكو والنج)واحتلالنا بورت ارثور سهلا كبرم ذراع طفل ولكن ضابطا يابانيا من الذين وجدوا فى الحربين قال لنا بعد ما شاهد الاستحكامات المنيعة الروسية فى (نانشان) أن الموقعة التى حصلت من عشر سنوات لم تكن الا معركة صغيرة بالنسبة لهذه وحقيقة لاننا ضحينا فوق الاربعة آلاف رجل بين قتيل وجريح لغرض أخذ هذا الموقع المستحكم وعليه كان منظر الميدان بعد القتال بشعا جدا ولو أن هذه الواقعة كانت طفيفة بالنسبة للهجوم العام على بورت ارثور ولكنى شاهدت فى (نانشان) لاول مرة المناظر الهائلة بعد المواقع العنيفة

وقد دبرنا على كل حال نمضية ليلة فى (شونجشياتن) وفى الصباح التالى أتتنا الاوامر بأن نتوجه ونقيم فى (ينشياتون) وهى قرية فى أسفل تل (نانشان) وكل من ٥ جى و٦ جى بلوك من آلاينا استلم أمر الحرس (نانشان)

وبعد ما وصلناها صعدنا فى الحال الى قمة التل المنحدر الذى أخبرتكم عنه سابقا ومن هناك كنت أرى أمامى واديا فسيحا وفى يمينه (كينشو) وفى يساره (تاهوشنجشان) المنحدر جدا وهو خلف رأسها وهذا هو موقع المحاربة العنيفة أمس وكان المحل ملآن بذكرى دوى المدافع وأصوات

القنابل وكان لا يمكننا أن نتحمل هذا المنظر المرهب والفظاعة هي الكلمة الوحيدة التي يمكننا أن نصف بها هذا المنظر

وكنا نرى من تل أمامنا دخانا ابيض يرتفع ناشرا رائحة غريبة وذلك كان ناشئا من حرق جثث أمواتنا البواسل وهو الهيكل الذي يحرق عليه ضحية الوطن وبدون شك أن المئات من هذه الارواح الوطنية ارتفعت الى السماء محاطة بهذا الدخان الى النعيم ولقد رفعنا فيعاتنا وانحنينا لهم فبينما كانت الامهات في الوطن تغزل ذكرات أولادهن المحبوبين في الحرب وبينما كانت الزوجات وأطفالهن على ظهورهن يخطن ذكرات أزواجهن الاعزاء مزقت هذه الابناء المحبوبة والازواج الاعزاء اربا وصاروا دخانا

وان النظر حتى الى رباط ملوث بالدماء ليس بمفرح ومن المؤثر النظر الى الجثث المتراكمة في الوادي أو القريبة من صخرة مصبوغة بدم احمر قان وأوجهها زرقاء وجفونها منتفخة وشعورها ملوثة بالدم والتراب وأسنانها البيضاء عاضة شفاهها وفقط ملابسها الحمراء كانت باقية بدون تغير وانه لم يسعني الا ان ارتجف لهول هذا المنظر معتقدا أن أكون نفسي مثلها عن قريب وما أمكن لاحد أن يقترب من هذه الجثث وينظر اليها باعتناء بل كنا نشير اليها من بعد برعب ووجل وكانت توجد في كل مكان تلك (رباط يلف على الساق) ملطخة بالدماء وقطع من الملابس العسكرية والقمصان والقبعات والخ كما كانت تنبعث الروائح الكريهة من كل فج وكانت صناديق البارود العديدة والظروف الفارغة المتراكمة عند حفر خط الخنادق بوضوح كيف كان يقاتل العدو الجيش الفاتح بيأس وكلما رأينا أموات

العدو المتروكة بالميدان كان لا يسعنا الا أن نشاركهم فى الاحساس نعم انهم كانوا اعداء ولكنهم كانوا يحاربون لاجل وطنهم أيضا ولقد دفناهم باعتناء ولكن هؤلاء ابطال المغلوبون كان لا يوجد عليهم اسماء حتى يمكن أن نرسلها لعائلاتهم فيلزم أن يكون آباؤهم وأزواجهم وأولادهم مشغولين برجوعهم سالمين غير عالمين فى معظم الاحوال متى وأين وكيف هؤلاء المحبوبون قتلوا ؟ وكان على جميعهم صليب على الصدر فلنتعلم أنهم ماتوا فى رحمة الله وقد تستحق قتلى وجرحى الجيش المهزوم كل شفقة وكل خدمة انسانية ومساواة من عدوهم على حسب اتفاق الصليب الاحمر الدولى ولكن يلزم اجتناب الهزيمة بكل وسيلة لانها أفظع من العار الذى يتسبب عنها فالمجروح يكون بلا شك حزينا لفراقه لرفاقه حيا أو على أهبة الموت بين أجانب لا يمكنه حتى التكلم معهم وحالة المقتول توجب الحزن أكثر أيضا وكان البعض عليهم بطاقات تحقيق شخصية وبذلك كان يسهل معرفة أسمائهم وقد أعلمنا العدو على قدر الامكان بتلك الاعداد ولكن كان يوجد الكثيرون الذين لا يمكن تحقيق شخصياتهم وهذه دفنت اسماؤهم فى ظلام ابدى

وقد عملت الترتيبات اللازمة لمسكننا الوقتى فى (بِنشيانون) ولما وصلت الى المسكن الاهلى الذى كان معداً لنا فى ذاك المساء سمعت أنينا بشريا محزنا بالقرب من الباب وفى الحال هرولت الى ذاك المكان لأرى عذاب جهنم بعينه حيث وجدت خمسة أو ستة عشر يابانيا وواحدا روسيا والجميع بهم جروح بليغة راقدين فى صحن الدار متراكمين على بعضهم يتلوّعون من شدة الالم وأول من شاهدنى منهم بسط يديه طالبا منى المساعدة

ـ ولماذا هذا الطلب ؟ . الم تكن المساعدة من ديدننا ؟ وما أمكنني أن أتصور سبب ترك هذه لرفاق المساكين وحدهم في هذه الحالة ولو كنا علمنا ذلك من قبل لكنا أسعفناهم اكثر ولقد ناديت المطبين ودموع التأثر تنحدر مني ولاطفتهم بما خفف آلامهم وبينما الجراح يشتغل في تضميد جراحهم كانوا يكررون لي قولهم : انني لا أنسى انسانيتكم . واني أشكركم وهلم جرا وهذه الكلمات كانت تخرج من صميم فؤادهم وعيونهم ملآى بالدموع وبعد التحقيق علم لنا أنهم لم يتناولوا حبة ارز واحدة أو نقطة ماء منذ يومين وكان بهم جميعا جروحات بليغة أما سيقانهم فكانت مكسورة وأذرعتهم مهشمة وبهم جروح رصاص بالرأس والصدر وبعضهم كان على باب الموت ومن الأول من كانوا يقبضون على أيدي بعضهم أو يعزون بعضهم بحنو فما أحزن هذا المنظر ! وما أشفقنا عليهم ! وحزنا تضاعف وشفقتنا عندما كنا نفكر أنه يوجد بجانبنا فوق الاربعة آلاف قتلى وجرحى غير ممكن أن نمد اليهم يد المساعدة وبعد برهة ابتدأ اثنان منهم يتغير لونهما وصارا يتنفسان ببطئ فاسرعت الى جانبهما لالاحظهما وقد ابتدأت أعينهما بأن تقفل وشفاههما وقفت عن الحركة وقد قال لي رفيق كان بجانبي أن هذين الاثنين تركا والدة عجوزا في الوطن وحيدة

أن من المحزن منظر الخيول المقتولة أو المجروحة فانها عبرت البحار للجري في أرض غريبة بين الرصاص الطائر وقصف المدافع وكانت تجري وأسيادها على ظهورها بكل انشراح وسرور في ميدان القتال وهو الوقت لرد مكافأة أسيادها على ما صنعوه لها في وقت السلم ويظهر حتى على خيول

الحمل انها كانت معجبة بنفسها ومتلهفة على أظهار قدرتها التى تمرنت عليها قبل وهى حمل الاثقال الثقيلة أو جر العربات الثقيلة بدون تضجر ولقد كانت فائدتها فى الحرب فوق الوصف ولو أن نتيجة نجاح الموقعة متوقفة على مجهودات الجند البواسل والضباط لكن لا يجب أن ننسى الدين لذى علينا لمساعدة حيواناتنا المخلصة لنا ومع ذلك فانها قنوعة أقل مما تستحق اذا أنها كانت راضية بعلف خشن وماء عكر غير متذمرة من تعرضها الدائم للمطر والثلج ظانة أن ملاطفات سيدها بها أعظم تسلية يمكنها الحصول عليها وصعوبة تأدية واجباتها المهمة مساوية لما يقاسيه الجندى ولكنها لا تتكلم ولذا لا تقول عن جروح أو آلام وأحيانا لا يمكن الحصول لها على دواء حتى ولا على تعليل خفيف مشجع ولقد تتلوى فى نزاع الموت وتموت بدون أن ينتبه اليها أحد وهى تصهل صهيل وداع محزن واجسامها لا تدفن بل تترك فى ميدان القتال للذئاب والغربان التى تتغذى منها وعظامها الكبيرة القوية تبيض فى زوايا الخلاء الواسع الوحشى فهذه الخيول الامينة هى بواسل ايضا اذ هى تموت موتا فظيعا مؤدية واجباتها ولذا لزم أن يبقى ذكرها باحترام وشكر وقد كان صاحبى المحترم الكاهن (نا كا يا شى) الذى كان يرافق جيشنا مدة الحرب كمرض متطوع يجمع شظايا (قطع) القنابل ليصنع منها صورة « كانون » (اله من آلهة اليابان) راكبا جوادا تعزية ارواح الخيول التى ماتت اثناء الحرب وكان بوذى آخر اسمه (دُوامى) يطلب بالحاح انشاء جمعية صليب أحمر بين الامم للخيول كما توجد جمعية للبشر وهو يقول انه بدون ذلك لا يمكن أن يقال اننا صادقون فى قواعد الانسانية فتكلمنا بدون ذلك عن حنونا ولطفنا نحو

الحيوانات العجم يكون اذا اصواتا فارغة ويقال انه ساع فى تقديم هذا الطلب الى مؤتمر (لاهاى) القادم ولو وجد جراحون بيطرية حقيقة فى الجيش الا انه لا يمكنهم أن يقوموا بكل ما يلزم نحو هذه الحيوانات التعساء فلاصلاح هذا النقص وحماية هذه الحيوانات على قدر الامكان فجمعية الصليب الاحمر للخيول هو طلب يستحق الالتفات الشديد . ثم انى قد صعدت على (نانشان) لاشاهد ترتيبات موقع العدو هناك فرأيت كل شيء فى غاية الاتقان والترتيب ، يستحق حقيقة أن يكون لدولة حربية عظمى وبدون شك كان موجودا عراقيل السلوك وحفر الذئب واللغم الارضى وخطوط خنادق قوية حول الجبل وكان يرى فى كل مكان فتوحات للمدافع ذات الطلق السريع وعدد عظيم من المدافع الثقيلة التى كانت افواهها بارزة من قلاع عديدة ولما كان الموقع مستحكما بهيئة نصف مستديرة كانت توجد هناك قشلاقات ومخازن مملوءة من جميع أصناف الملبوسات الشتوية وكان موجودا ايضا سكة حديدية وبطارية مدافع وعند ما دخلت بناء كان مكتب رياسة القائد الروسى اندهشت من معيشة الترف والراحة التى كان يعيشها فهناك كان يرى الاثاث الجميل حتى لا يظن الانسان انه كان فى ميدان قتال ومن الاغرب وجود ملابس ولدر عدة آنق (تواليت) للسيدات وملابس أطفال مبعثرة فى كل مكان

وبعدها نظرت بنظارة ميدانى من هذا الموقع بعيداً نحو شاطئ البحر الشرقى فرأيت رجالا وخيولا راقدين على الشاطئ وهى بقايا لواء سوارى العدو الذى كان موجوداً بالقرب من (لاوهوشان) للمدافعة عن الجناح اليمين

خطوطهم ولكن فاجأتهم الفرقة الرابعة من الخلف عند الشاطئ الغربي ولما لم يكن عندهم طريق للتقهقر سيقوا الى البحر وهناك غرقوا عن آخرهم تقريبا وانهم جلبوا على أنفسهم هذه الهزيمة لانهم كانوا متكاثرين كثيراً على قوة موقعهم ولذا خسروا فرصة التقهقر عند الوقت اللازم

ولقد رأينا في نصف الطريق الى الجبل آلة نور البحث وتلا من الصواريخ وهي الاشياء التي كانت تسبق غالبا محاولتنا ان نقترب من العدو في جنح الظلام ولذا ألفت جنودنا نور البحث هذا منتقمين منه بعد احتلال الموقع لان هذه الآلة اتعبتهم كثيرا ولقد ملأني هذا المنظر الذي كان امام عيني حزنا وكآبة ففي كل ساعة كانت تزداد قطع الخشب المغروسة الدالة على مدافن القتلى ولقد لاحظت أثناء بحثي هضبة من التراب مغروسا عليها قطعة غاب فصعدت الى أعلى الهضبة لأرى ماها ولكني ارتعدت عند استكشاف جثة روسي تحتها وكانت ذلك اول مرة لي في الوطء على جثة ولذا لا يمكنني أن أصف الرعب الذي شعرت به وكنت لم احارب قبل وعليه فما وسعني الا أن ارتجف لتأثيراتها المحزنة ومن الغريب اني لم أزل افكر بها لان كل مازاد الرصاص الطائر في مقابلة الانسان كلما قل احساسه في الحرب فالشيء المؤثر يصير بالتمرين غير مؤثر والالفه تأخذ بطرف الاحساس فاذا استمر بنا التأثر والخوف بهذه الكيفية لا يمكننا أن نعيش بعد الجهاد

وقد استمر جيشنا مدة ست عشرة ساعة وهو يقاوم بثبات رصاص العدو الهاطل وأخيراً استولى على (تانشان) بعد هجومات عديدة وتضحية عدد عظيم من أرواح عزيزة وبذلك حصلنا على مفتاح جميع شبه جزيرة (كينشو)

قاطعين خط مواصلات العدو وصار ممكننا الآن ترك خليج (تالن) بدون خوف أو انزعاج وعاملين كل الترتيبات اللازمة للهجوم العام على بورت ارثور وان انتصارنا فى (نانشان) كان حادثا عظيما فى تواريخ الحروبات وهـذا النجاح الباهر لم يكتسب بقوة البارود والمدفع ولكن فى الحقيقة بسالة وثبات رجالنا إذ فى أثناء القتال عند عدم نجاح الهجوم الثالث صرخ القائد (أوكو) بصوت كالرعد : أين ياماتو داماشى ؟ (روح اليابان) وعلى ذلك اكتسب جميع الجيش قوة جديدة وأخذ نفساطويلا ثم استولى على الموقع عنوة بالهجوم ولقد قال السير كلود مكدونلد (سفير انكلترا الحالى فى اليابان) « أن سر نجاح جيش اليابان الدائمى فى هذا الحرب كان للرجال دون البنادق وموقعة (نانشان) هذه كانت برهانا لهذا النوع »

الفصل التاسع

الحفر والاستكشاف

كان يوم ٢٨ مايو هو الذى توجهنا فيه الى (شانجشياتونج) للحلول محل الفرقة الثالثة المدافعة ولقد افترقت فرقتنا بعـد (نانشان) من الجيش اليابانى الذى كان تحت إمرة القائد (أوكو) و لحقت بالجيش الثالث المنظم حديثا لمحاصرة بورت ارثور وبوان المسير بين (يانشيانون) و(شانجشياتون) كان غير بعيد الا أننى كلما كنت أفتكر شيئا بخصوص السير لا أزال أتذكر هذه المرة بالخصوص فالارض التى حول بورت ارثور مكسوة بالاحجار